

دور السياق اللغوي في توجيه دلالة الغريب في سجع الكُهان للشيخ محمد البشير الإبراهيمي

زين الدين بن موسى

جامعة قسنطينة 2

مقدمة:

يعدّ البشير الإبراهيمي من أمراء البيان في الأدب الحديث و خطيب مصقّع يتفقّ لسانه بالفصيح من اللّغة العربية الذي لا يجاريه فيه إلّا من ضاهاه في علم العربية؛ لأنّه كان من الذين تكوّنوا تكويناً علمياً رصيناً ميزة منهجه في التّحصيل الأوّل حفظ كتاب الله كلّه وكذا حفظ أكبر عدد من الأحاديث الصّحاح، ولم يقتصر الأمر على هذا التّحوّ فحسب بل تجاوزته بذاكرته القويّة إلى حفظ أراجيز العرب و أشعارها و بعض المصنّفات في اللّغة والأدب، فهو رحمه الله لم يبلغ هذه المكانة الأدبية التي شهد له بها القاصي والدّاني في المشرق والمغرب إلّا لكونه حاز فضل السّبق في الاطّلاع على ذخائر التراث حينما كان أقرانه في زمانه منشغلين بأشياء أخرى نأت بهم عن مصادر العلم و المعرفة، ولعلّ ترجمة حياته العلمية تكشف بوضوح عن همّة عالية وإرادة خارقة مكّنته من اكتساب الشّخصية العلمية وهو لم يناهز الخمس عشرة سنة من عمره.

إنّ هذه الميزة في شخص البشير الإبراهيمي عامّة وشخصيته الأدبية خاصّة هي التي مكّنته من ولوج عوالم كثيرة في ميادين الفكر والثّقافة والفنّ، وقد أبان عن مقدرة خلاقته في إنتاج الأعمال الأدبية كلّما أُتيحت له فرصة الإبداع، فالنّزير اليسير الذي جادت به قريحته من أعمال أدبية في عيون البصائر ليس دليلاً على جفاف منابع الإبداع الأدبي عنده بل لكونه كتب في موضوعات كثيرة كان أهمّها ما يعني الأُمّة الإسلامية من شؤون وحدتها و طرائق إصلاحها وسبل نهضتها، لاسيّما أنّ معظم الدّول الإسلامية كانت ترزح تحت نير الاستعمار، ممّا استوجب رعاية خاصّة بحال تلك المجتمعات من خلال كشف واقع حياتهم وما يعانونه من تخلف وتراجع فكري، لهذا فقد جاءت أغلب كتابات البشير الإبراهيمي مسيطرة لمثل هذا الواقع تضمّد جرحه و تعالج أمراضه ممّا جعله رحمه الله يعزف عن الكتابة في شتّى فنون الأدب وهو الأقدر على ذلك بما يمتلكه من ملكة لغوية وحسّ أدبي مرهف ينبث من مكان من شخصية مبدعة تظهر ملامحها جلية كلّما

أُتيحت فرصة للتعبير عما يجيش في العقل و النفس من أفكار ومشاعر تكون عوناً على إنتاج عمل أدبي ما.

فما نظمته الشيخ الإبراهيمي من قصائد شعرية وما كتبه من مقالات نقدية وما تركه من أثر متميز في عالم الرواية و هو الموسوم بـ(رواية الثلاثة) وكذا مجاراته للقدمات في تأليف رسالة عن الضب، كل ذلك يشهد على قوة شكيمة وطول مراسه إذا ما اقتحم ميادين الأدب وحاول أن يستل من كنانة عبقرية سهما يصيب به مقاتل الذين استعجموا وأغرقتهم الاتجاهات الأدبية المعاصرة؛ فهو يبين لهم في أكثر من موضع أن الأديب لا يتنكر للتراث بل يجعله أحد أهم مصادره، وقد حقق الشيخ البشير الإبراهيمي في ذلك أنموذج الاقتداء؛ حيث استثمر لونا من ألوان النثر في العصر الجاهلي عُرف بـ(سجع الكهان) ونسج على منواله قصد إبراز مهارة لغوية وأخرى فنية هدف من ورائهما تبليغ رسالة إلى الذين استغربوا ومجّوا الغريب من كلام العرب، حتى وإن كان السياق يشرحه أو أنه مُقحم ضمن أساليب راقية تحكمها السلاسة و السهولة، فيتماهى الغريب من الألفاظ مع المألوف منها ويكون ذلك حافزا على الشغوف بما ورثه قدماء العرب من لوحات فنية تستقطب كل من يقرأها بعين المتأمل و المتدبر لملامح جودتها و رونق جمالها.

أولاً: سجع الكهان في تاريخ الأدب العربي:

لم يختلف القدماء في كون النثر أسبق ظهوراً من الشعر، إلا أن العرب كانت للشعر أحفظ بحكم سلاسة أوزانه وسهولة استحضاره عند الاستشهاد به في المقامات المختلفة، كما أن الشعر كان ذاكرة العرب يحفظ مآثرهم ويسجل بطولاتهم، غير أن ما ظهر من النثر المسبوك في العصر الجاهلي مثله نصوص الخطب والحكم والأمثال بوصفها أنموذجاً بليغاً يحتذونه في كلامهم ويعبر عن مدى فصاحة لسانهم، ومن أهم فنون النثر في العصر الجاهلي ما اصطلاح عليه بسجع الكهان، فالسجع ضرب من البديع في البلاغة العربية يعتمد على توافق أواخر الجمل شأنه في ذلك شأن القافية في الشعر(1)، والكهان طبقة من الرجال كانوا في العصر الجاهلي يشغلون الوظائف الدينية الوثنية في أماكن العبادات وبيوت الآلهة (2)، وكان يطلق على أحدهم الكاهن منهم أكتهم بن صيفي، والمأمور الحارثي ومن النساء زيراء كاهنة بني رثام التي أنذرت قومها بالغارة عليهم فقالت: واللوح الخافق والليل الغاسق، والصباح الشارق، والنجم الطارق، والمزن الوادق، إن شجر الوادي ليأدو ختلاً، ويحرق أنياباً غصلاً، وإن صخر الطود لينذر نُكلاً، لا تجدون معه

معلا فوافقت قوماً أشارى سُكارى...) (3) ومن أشهر كهان العرب في الجاهلية شقُّ بن أُمّار بن نزار وسطيح بن مازن بن غسان ، وعراف اليمامة رباح بن عجلة ، وعراف نجد هو الأبلق الأسدي ، فأما سطيح فكان مقره بلاد الشام واسمه ربيع بن ربيعة بن مسعود بن مازن بن ذئب بن عدي بن مازن غُصَّان (4).

و سجع الكهان ضرب خاص من الخطابة عرف في الجاهلية وانقرض بظهور الإسلام (5)، ومن خصائص أسجاع الكهان أنّها في جملتها كلام عام لا يرشد السامع إلى حقائق جليّة وإنّما يضعه في الغموض والإبهام باصطناع السجع والإيماء وقصر الجمل للإهاء السامع عن تتبع ما يلقى إليه من الأخبار العربية وجعله في حالة نفسية مضطربة تساعد الكاهن على الوصول إلى ما يريد بكلّ سهولة ويسر ويكون المخاطب بتلك الإشارات الغامضة والألفاظ المبهمة والأقسام المؤكدة والأسجاع المنمّقة مستعداً لقبول كلّ ما يُقال له، بلا جدال أو اعتراض، وتأويل ما يسمعه بحسب حالته ومدى فهمه (6).

فهذا الضرب من النثر استدعته ضرورة تسلّط الكهان على عقول الناس بخزعبلاتهم التي ما كان للناس في زمانهم أن يكذبوها ولا أن يردّوها لأنهم استأنسوا بتلك الأسجاع ورأوا فيها خلاصاً من تعب أنفسهم وشفاء لأدواء تطيّروا منها؛ فما إن يأخذهم الكاهن بتلك العبارات الزجّلة ذات الإيقاع المؤثّر والألفاظ المنسجمة حتّى يستسلمون لإرادته، وهو بهذا النمط من التعبير يحاول أن يضمّن كلامه ألفاظاً فضفاضة حمالة أوجه لا تحيل على معيّن بذاته، ممّا ييسّر عليه التأويل إذا ما خانت نبوءته، فاقتدار الكاهن على تلوين الخطاب بمختلف الأساليب والعبارات يمكنه من أن ينسلّ من عويص قد يتورّط فيه حينما يفهمه غيره أو أنّه لا يتجاوب معه، والدليل على ذلك أنّ العرب حينما جاءتها الرسالة المحمّدية اعتقدت أنّ ما في القرآن هو من سجع الكهان لوجود ملامح لمثل هذه الظاهرة أي السجع في القرآن الكريم، غير أنّ الباري عزّ وجل وإن أحكم نظمهم أي الذّكر الحكيم فإنّه سبحانه وتعالى نبيّه صلّى الله عليه وسلّم من أن يكون شاعراً أو كاهناً؛ قال تعالى: (وَمَا هُوَ بِقَوْلٍ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ، وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَدْكُرُونَ) (7).

ثانياً: المعاني السياقية للغريب في سجع الكهان للبشير الإبراهيمي

حينما شرع البشير الإبراهيمي في كتابة هذه الفصول التي تكاد أن تضاهي المقامات لم يكن يدور في خلدّه أن يحاكي الكهان في زعمهم ولا في افتراءاتهم، بل جاراها في نوعية

الأسلوب ونمطية التركيب الذي يميّز عادة هذا اللون من النشر؛ حيث يقول: (هذه فصول، إن لا تكن فيها روح الكاهن ففيها من الكاهن سحجه، وإن لا يجُلّ في جوانبها صدَى الكهانة ففيها من ذلك الصدى رَجْعُه؛ فيها الزمزمة المفصحة، و التعمية المبصرة، و فيها التقريع و التبكيت، و فيها السخرية و التنكيت، و فيها الإشارة اللَّامحة، و فيها اللفظة الجامحة، و فيها العسل للأبرار، و ما ألقاهم، و فيها اللسع للفجار، و ما أكثرهم، فلعلها تَهَرُّ من أبناء العروبة جامداً، أو تؤرُّ منهم خامداً، فنجني شيئاً من ثمرة النية، و نغيّر أواخر هذه الأسماء المبنية (8)، ولم ينفرد الشيخ رحمه الله بهذا اللون من الكتابة في العصر الحديث بل سبقه فارس بن يوسف الشدياق سنة 1855 عندما أصدر مجموعته (الساق على الساق فيما هو الفاريق)، فسيمائية العنوان في حدّ ذاتها تحيل على دلالات مبهمة كما أنّ طرفي ديباجة العنوان يحكماهما السجع بوصفه قيداً بديعياً يهياً ذهن المتلقي لما سيأتي بيانه في محتوى الكتاب؛ حيث لا ينفصل الأسلوب عمّا هو في واجهة الكتاب، ويقول الشدياق عن سبب وضعه هذا الكتاب: (وبعد فإنّ جميع ما أودعته في هذا الكتاب فإنّما هو مبنيّ على أمرين أحدهما إبراز غرائب اللّغة ونوادرها فيندرج تحت جنس الغريب نوع المتزادف والمتجانس، وقد ضمّنت منهما أشهر ما تلزم معرفته وأهمّ ما تمسّ الحاجة إليه على نط بديع (9).

فميزة مثل هذه الكتابات سواء عند الشدياق أو البشير الإبراهيمي أنّها تنهج سبيلاً واحداً يعتمد تنميق العبارات وسجع الألفاظ وتوظيف الغريب الذي لم تألفه الأسماع حديثاً لبعد عهدها عن الفصح الموعّل في القدم الذي حوته مصادر التراث، لأنّ ما اصطُلح عليه في الأدب العربي بسجع الكهّان لم تندثر آثاره بالكلية بل إنّ عصر المقامات قد أحيا تلك الرّوح المبدعة عند مؤلّفيها فسلّكوا المسلك نفسه في إقحام السجع والغريب، حتّى أنّ بعض اللّغويين قديماً حاولوا أن يستقطروا من تلك المقامات معاجم للغريب تكشف عن مدى ولوع أصحابها بإدراج الحوشي و النّادر والشاذّ من الأساليب والألفاظ، إلّا أنّ غرابة الألفاظ لم تكن تجد هذا التّفور الذي تجده اليوم لاختلاف الزمنين وتباين اللّسانين قديماً وحديثاً.

لقد تنوّعت موضوعات هذه الفصول التي وسمها البشير الإبراهيمي بسجع الكهّان و تنوّعت مقالاتها بحسب القضية التي كان يرغب في علاجها و توضيح مشكلاتها المتعلقة خاصّة بفلسطين و موقف العرب حكاماً ومحكومين من قضيتها؛ فحينما يتمّ رصد الغريب في هذه

النماذج المصطفاة يمكن ملاحظة تعالقها في السياق المقاميّ و الحاليّ المرتبطين ارتباطاً وثيقاً بالخلفية الثقافية و الفكرية للقارئ ففي قوله مثلاً على لسان الكاهن القديم، بحكم اختياره أنموذجاً لشخصية لا تراهن ولا تدهن في مواقفها التي تؤمن بقضيتها على أنّها مسألة حقّ لا تحتاج إلى مداينة أو مزيدة: (الكاهن، لا يُدارى و لا يدهن، كلامه رمز، ليس فيه لمز. عاذ غيره بالتصريح فعاد بالتجريح؛ و لا ذ هو بالكهانة، فأمن المهانة. كان... فكان الرَّاجِرُ الرَّادِع، للفاجر الخادع، وكان... فكان نذير السارق و المارق، و الخاتل و القاتل، و المحتال و المعتال، و القاذف و الحاذف، و المبتهر و المبتثر) (10).

يتّضح من خلال معجم ألفاظ هذه الفقرة ثلاثة ألفاظ تدرج ضمن مسلسل الغريب عند العرب أوّلها لفظ (الحاذف) وهو الذي يجترؤ الكلام ويبتز طرف حقيقته (11)، وثانيهما المبتهر و هو الذي يبهت غيره بما ليس فيه (12)، وثالثهما المبتثر وهو الذي يكيد لغيره بأن يحفر له حفرة ليقع فيها (13). فمعاني هذه الألفاظ لا يمكن أن تنجلي لولا الاحتكام إلى السياق الذي أوردتها مترادفة تارة و متضادة تارة أخرى.

ويقول في موضع آخر: (لا أقسم بذات الحفيف، و الجناح الحفيف، المشارفة في جوّها للكفيف و بالسر المودع في التجاوبف و التلايف، و بالمغيرات صبّحاً عليها التحايف والمغيرين على الحق كالعاهر ابن العفيف . و بالسابغات و السوابغ من الدروع و الجلابيب ، و بالآخذين أمس من تلّ أبيب بالتلابيب ، و بالبحر و السفينة ، و الخبر و " الدفينة " ، إن أبا الطيب المتنبي لمن موالينا، و ممن تلقى الكهانة عن أوالينا ، و إنه ما دُعي بالمتنبي إلا لأنه كان شاعراً كاهناً، ليناقض النبي الذي لم يكن كاهناً و لا شاعراً، و قد نُفيا عن النبي مجتمعين، فبتنا في المتنبي مجتمعين، و إن كثيراً من شعره كهانة ملتقعة بالشعر ، يُوطّئها في جُمْل، و يُعطّئها بممدوح أو جُمْل ، و ستظهر أخبائها ، و تُعلم أنبائها... و إن قوله: وقعت على الأردنّ منه بليّة ، هو من الكهانة الكاهنة ، (بالحالة الراهنة) . قالوا أراد أسداً قانصاً ، و قلنا أراد رجلاً ناقصاً. قالوا: أراد كلباً ، روع قلباً، و مرّق خلباً ، و أوسع المهج سلباً، و قدم ضراغمة غلباً، و أوطنها غابات غلباً و زاد عنها أشاوس غلباً ، قلنا : إنما أراد رجلاً ركب صعباً ، و باع شعباً ، و عَقّ لؤيّاً و كغباً، و سلك بنو أبيه شعباً، و سلك وحده شعباً، و خذلهم في الجلى فملاً القلوب رعباً، و اشتفّ صُبابة المال، فلم يدع لبائس حلساً و لا لبائسة قَعْباً.. لم يُرد أسداً خادراً، و إنما أراد رجلاً

ساذراً، يظهر في زمن نحس، و يبيع ضفّتي الأردن بثمان بحس، و أين ليث عقره بدر بسوط، من شخص كقره صدر بنوط.

أيتها البحيرة، مالك في حيرة؟ لقد شهدت لبدر بن عمار بالفتوة، فهل تشهدين لأبي الطيب بالنبوة؟ وحديثي الولي يا (ولية)، أيهما كان عليك بلية؟ ذلك الذي وردك زائراً، أم هذا وردك حائراً؟ إنهما لا يستويان: ذاك أسد غاب، رزقه في التاب، وهذا حلف وجار، رزقه على الجار، ذاك يعيش على فرائسه، وهذا يعيش على فضلات سائسه، ذاك رمز إقدام، وهذا موطن أقدام، ذاك ورد الفرات زئيره، وهذا جاوز الفرات تزويره، ذاك مشغول البال بترية الأشبال، وهذا مشغول... بعرس الغول (...). أيتها الخاذل للعزى، أغضبت سراة الحي، وأزعجت الميث منهم والحي، من لؤي إلى بني نمي، فويحك، أما تخاف أن تهلك، يوم يقال: يا محمد إنه ليس من أهلك (14). هذا الحديث مغزاه سياسي، ونقد لمواقف بعض الملوك العرب في قضية فلسطين في سنة ثمان وأربعين، وهو يسجل موقفاً رائعا للجزائريين، ونقمهم من الخيانة العربية، والخونة من أرجاس الملوك، فهو يدلّ على أنّ الجزائريين كانوا ثوّاراً قبل الثورة، كما لا يرحون ثوّاراً بعدها، تتسم مواقفهم السياسية أبداً بإيثار قول كلمة الحق، ونصر القضايا الوطنية والتحريرية على نحو مستمر. وقد كتب هذا الحديث بلغة لو تجسست لكانت شوكة قتاد لا يُمسّ، أو جلاميد صلدة لا يصاعد عليها، فليس من شأن الأحاديث الأدبية أن تكون ذات أسلوب مؤتلف من ألفاظ مرقعة، وكلمات ملفقة.

فالإبراهيمي يبدأ حديثه هذا بسجع مركوم بعضه فوق بعض، فهو يسلك فيه مسلك: (لزوم ما لا يلزم)، فهولا يرضى أن تكون السجعة الواحدة أو السّجعات الكثيرة قائمة حروفها على فاء واحدة تنتهي بها الجملة، حتى يجعلها مختومة بثلاثة أحرف متجانسة، (15) وما (الحفيف) و (الخفيف) و (الكفيف) و (التلافيف) و (التحافيف) و (العفيف)، إلّا دليل على سرعة توارد الألفاظ المتقاربة في الوزن على ذهن الكاتب لكي يحصل بها فسيفساء السجع الذي ينشده، لكن إيراد ألفاظ مبهمة الدلالة في ظاهرها يمكن أن يُوهم بقصور الفهم لمعانيها، غير أنّ السياق قادر على أن يربط اللاحق بالسابق ويتمم الفكرة الرئيسة ليستحضر القارئ حقيقة ما يقرأ عنه ويشرحه بعد ذلك تدريجياً تبعاً لما ألفه من عادة القدماء في الجاهلية لاسيما الكهّان منهم الذين يسارعون إلى القسم بمثل هذه الكائنات والظواهر الطبيعية؛ فذات الحفيف هي الأشجار والجناح

الخفيف هي كناية عن الطير المحلقة في جو السماء ودلّ عليها قوله (المشارفة في جوها للكفيف)، ويعظم ذلك القسم بالإشارة إلى آية الخلق التي تبين العظام الجوفاء ودقة أعصاب الدماغ بقوله: (وبالسر المودع في التجاويف والتلافيص)، وهناك ألفاظ أخرى تبدو للوهلة الأولى غريبة أوردتها البشير الإبراهيمي في نصّ مقالته هذه مثل: الحلس الذي يعني الأطمار البالية والألبسة الرثة والقعب الذي هو قدح ضخم غليظ (16) وفي ذلك يقول امرؤ القيس:

لها حافر مثل قعب الولي د ركب فيه وظيف عجز (17)

أما الخادر و السادر فهما لفظان يتكاملان معنييهما؛ لأنّ الخادر سلب القوة والسادر التائه الحيران؛ وأنشدت العرب في ذلك قول الشاعر:

ولا تنطقي العوراء في القوم سادراً فإنّ لها فاعلماً، من القوم واعياً (18)

أما في التصوير الفني الذي ساقه تعبيرا عن الانحزام والتراجع فهو يحاول إن يستنهض الهمم بضرب الأمثال التي تكشف عن الهوان وذلك حين يقول: (أين ليث عفره بدر بسوط، من شخص كفره صدر بنوط)؛ حيث استغل جماليات التناص ووظف معاني شعرية قيلت في مثل هذه المواقف لكن بشرف المنتصر لا بذلّ المنهزم، فهو قد اقتبس هذه الصورة البيانية من قول المتنبي:

أمعفر الليث الهزبر بسوطه لمن ادّخرت الصارم المصفولا (19).

ومّا يشهد على براعة الشيخ البشير الإبراهيمي في مجال توظيف سيميائية الرمز بكلّ أبعادها أنّه استبدل تسمية الشعوب معبرا عنها بالألوان التي عرفت بها فهو يقول في مقالته الثانية: (فويل للعرب من ملوكهم وويل للعجم من سلوكهم وويل للروم من صعلوكهم، جنت على الأصفر ناره وعلى الأبيض ديناره وعلى الأسود فدامته واغتراره، وعلى العربي ركه البطي ولسانه النبطي) (20)؛ فبعدها ذكر جملة الشعوب بما يمتاز به حكمائها أتبع ذلك بتوصيف لحقيقتهم من خلال ذكر لون بشرتهم، بنو الأصفر هم الروم والبيض هم الفرس، في حين أنّ السود هو الحبشة وغيرهم.

ولئن كانت جملة الصور السابقة قد بينت طريقة توظيف الغريب للدلالة على معان معنوية أخرى مادية فقد انتقل البشير الإبراهيمي في مقالته هذه إلى الشخصوس لكي يمنحهم بعدا دلاليا آخر من خلال الوصف المستمد من التاريخ، ويكفي دليلا على ذلك قوله: (أيها العربي الحق

سافر والعدو كافر والقوي ظافر فعلام تنافر خصمك إلى خنافر) (21) فالمقصود بخنافر هو بن التوأم الحميري كان كاهنا في حمير ثم أسلم على يد معاذ بن جبل (22).

كما أنّ الشيخ الإبراهيمي النفث في أكثر من موضع في مقالاته سجع الكهان إلى ألوان بديعية رصّع بها نصوصه هذه، والشاهد في ذلك ما ذكره في مقالته الثالثة التي يقول فيها: (فتكدّرت المشارب وتقوّضت المضارب وكهّمت المضارب) (23)؛ فالمضارب الأولى يعني بها الخيام في حين يعني بالثانية منهما ما يضرب به من السيّف، وهذا جناس تامّ، أمّا عن إقحامه لكلمة (كهّمت) والتي تعني كلّت وضعفت (24) فالقصد من ذلك تصوير المال الذي صارت إليه حال هؤلاء القوم الذين قوّضت مساكنهم وأصيبوا في مقاتلهم.

الخاتمة:

لقد أحيّا البشير الإبراهيمي مواتا في قائمة فنون الأدب حينما ابتعث سجع الكهان من مرقده بعد ما كان قد طواه النسيان في بطون كتب التراث في زمن المقامات و ما ألف عن النشر الجاهلي، فحاضر الأدباء في زمن البشر الإبراهيمي لا يحفّز على تمثّل نص أدبي مسبوك بالبديع كما هي عليه الحال في فصول سجع الكهان الذي لا يتأتّى النسيج على منوالها إلا لمن أوتي فصل الخطاب و امتلك ناصية اللغة و انقادت له الأوزان بقوافيها والألفاظ بأسجاعها تتوارد على ذهنه المبدع ترى كلما استدعاها لتكون طوع لسانه و قلمه فتنسب العبارات من رأس يراعه تؤكّد أن البنّان التي تُنطقها قادرة على أن تحيل الفج من القول عذبا سلسبيلا.

فما أودعه البشير الإبراهيمي من سحر البيان و القدرة على استحضار الأفكار في فصول سجع الكهان لدليل على مدى تمكنه من أدوات البلاغة العربية في قمة وظائفها؛ لأنه استطاع أن يبلغ بها قمة صورها البلاغية و التبليغة بالرغم من كثرة الألفاظ الغريبة التي وشّح بها نصوصه هذه ودبّج بها منطق ألفاظه ليبين لأهل زمانه أن غربة الألفاظ غربتان غربة بحكم موت الألفاظ نفسها و غربة بحكم هجران أهل اللغة لمعجم لسانها؛ فالألفاظ الغريبة في فصول سجع الكهان لا تعدو أن تكون ألفاظا تناسبتها الأقلام و هجرتها الألسنة عن عجمة استفحل تغلغلها في كتابات المعاصرين من الأدباء و الكتّاب، فلولا تنائهم عن مصادر الفصح من الكلام لبدا لهم ما ورد في سجع الكهان ظاهرة طبيعية تعبر عن حالة من تفلّت اللسان و القلم إذا ما استثارهما المعنى بحوافره و مستبطن طاقاته.

قائمة الألفاظ الغريبة التي أوردها البشير الإبراهيمي في سجع الكهّان تمكن السياق من التكفل بشرحها تباعاً بإحالة معاني بعض الألفاظ الغريبة على مقتبس من القول له ما يفسره في التراث العربي؛ فإذا كان للقارئ قدرة على استحضار الموروث أثناء قراءته لنص سجع الكهّان فهو حتماً لن يصاب العداء لشيوخ البشير الإبراهيمي بالتعقيد وركوب الصعب من الألفاظ و مسايرة المتفصحين بالسجع تعمية على القارئ، فقد عاب القدماء على بعض العلماء احترافهم للصنعة في الكلام و الغلو في اصطفاء الحوشي من الألفاظ؛ لأن ذلك كان بالنسبة إليهم مقارنة برقي الفصح من اللغة في تلك الحقبة مفارقة لغوية، أمّا أن يُستهجن توظيف مثل هذا الأسلوب الذي استخدمه البشير الإبراهيمي في فصول سجع الكهّان فلا مبرر له بالنظر إلى الخصائص الفنية لأسلوب الرجل في الكتابة و التي طبعت مختلف أعماله الأدبية و غيرها؛ حيث لا مكانة للتكلف و لا للترّف و لا للمواراة و المداهنة.

الهوامش:

- 1- خزانة الأدب و غاية الأرب: ابن حجة الحموي، تحقيق: صلاح الدين الهواري، 400/2، ط1، 2006، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان.
- 2- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: جواد علي، 563/8، ط1، 2006، آوند دانس، بيروت، لبنان.
- 3- الأمالي: أبو علي القالي و يليه الذيل والنوادر للمؤلف نفسه وكتاب التنبيه لأبي عبيد البكري، 126/1، دط، دت، دار الجيل، بيروت، لبنان.
- 4- البيان والتبيين: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، 287/1 و ما بعدها، دط، دت، دار الفكر، بيروت، لبنان.
- 5- تاريخ الأدب العربي قبل الإسلام: نوري حمودي القيسي وآخرون، ص358، ط2000، 2، دار الكتب للطباعة والنشر، جامعة الموصل، العراق.
- 6- الفن ومذاهبه في النثر العربي: شوقي ضيف، ص38، ط9، 1980، دار المعارف، القاهرة، مصر.
- 7- الحاقة 41-42.
- 8- آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، جمع وتقدم: أحمد طالب الإبراهيمي، 518/3، ط1997، 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان.
- 9- الساق على الساق فيما هو الفاريان: فارس الشدياق، 5/1، دط، 1993، موفم للنشر، الجزائر.

- 10- آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي 519/3.
- 11- أساس البلاغة: أبو القاسم الزمخشري، تحقيق: محمد باسل عيون السود 177/1، ط1، 1998، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- 12- لسان العرب: ابن منظور، تحقيق اللجنة العلمية بدار صادر، 166/2، ط3، 2004، دار صادر، بيروت، لبنان.
- 13- المعجم الوسيط: إبراهيم مصطفى وآخرون، 37/1، ط2، دت، المكتبة الإسلامية، استانبول تركيا.
- 14- آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي 520/3.
- 15- نخضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر 1925-1954: عبد المالك المرتاض، ص126، دط، دت، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.
- 16- المعجم الوسيط: إبراهيم مصطفى وآخرون 747/2.
- 17- ديوان امرئ القيس تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ص163، ط1، 1958م. دار المعارف، مصر.
- 18- أساس البلاغة: الزمخشري 445/1.
- 19- شرح ديوان المتنبي: عبد الرحمان البرقوقي، 351/3، دط، 1986، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.
- 20- آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي 522/3.
- 21- المصدر نفسه 523/3.
- 22- الإصابة في تمييز الصحابة: ابن حجر العسقلاني، تحقيق: علي محمد البجاوي، 322/1، ط1، 1992، دار الجيل، بيروت. لبنان.
- 23- المصدر نفسه 523/3.
- 24- العين: الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي 382/3، دط، 1409هـ، مؤسسة الهجرة، طهران، إيران